

الفصل الخامس عشر

الغزل عند أبي نواس^١

بعيداً جداً ما بين هذا الغزل النواسي العباسي، الذي أشرت في الفصل الماضي إلى أنه ضعيف متكلف، وذلك الغزل الأموي العربي، الذي أشرت في فصلٍ مضى أول هذا العام إلى صدقه وقوته.

نعم! إن الفرق عظيم بين هذا الغزل النواسي، وبين ذلك الغزل الذي كان ينشره جميل أو كُنْزير أو عمر بن أبي ربيعة، الفرق عظيم جداً، وليس عظم هذا الفرق شيئاً غريباً في نفسه، فيكفي أن تنظر إلى العصر الأموي والعصر العباسي من جهة، وتنظر إلى نفسية الشعراء الأمويين، ونفسية أبي نواس من جهةٍ أخرى، لتقتنع بأن هذا الفرق لا ينبغي أن يكون غريباً، بل ينبغي أن يكون واجباً محتوماً، يجب أن تنظر إلى العصرين، لترى في أولهما، على رقيه وعناية الناس فيه باللذة والعاطفة، سذاجة ظاهرة، مصدرها أن الاختلاط بين العرب وغير العرب لم يشتد، ولم ينته إلى نتائجه المعقولة، ولترى في ثانيهما أن النفس العربية قد أخذت تبرا قليلاً قليلاً من عربيتها، وتتأثر بهذه الأجناس المختلفة من الناس، التي كانت تفد على العراق، وعلى بغداد بنوعٍ خاص، فتحمل أمزجتها

^١ نُشرت بالسياسة في ٨ صفر سنة ١٣٤٢/ ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٣.

وأهواءها ولذاتها، وكل ما فيها من خير وشر بعيد ما بينه وبين ما في نفس الأجناس العربية من صلة.

يكفي أن تنتظر إلى هذا كله لتعرف هذا الفرق بين الغزل العباسي عامة، وبين الغزل الأموي عامة، فإذا فهمت هذا، وعرفت له أثره في نفس أبي نواس، وجب عليك أن تنتظر إلى أبي نواس نفسه، وإلى ما قدمت من حياته وميوله وأهوائه، وأن تنتظر بعد ذلك إلى أئمة الغزل من شعراء العصر الأموي، وإلى نفسياتهم المختلفة، فتزداد بهذا الفرق إيماناً، ويزداد هذا الفرق أمامك وضوحاً.

كان «جميل» وأمثال «جميل» قومًا غزلين بطبيعتهم، غزلين؛ لأنهم يحبون النساء، أو يحبون امرأة بعينها بين النساء، يحبونها ويكلفون بها، فيملك عليهم هذا الحب نفوسهم وحياتهم، حتى لا يعيشون إلا به وله، وحتى لا يصدرون إلا عنه، ولا يردون إلا عليه، وكانت نفوسهم صافية لم تكدرها آثام الحضارة، سهلة لم تعقدها حاجات المدنية، فكانوا إذا ذكروا النساء، أو تغنوا بحبهن، وصفوا عواطف قوية صادقة، فصدقوا في الوصف، وكانوا فيه أقوياء.

ثم كان «كثير» وأمثال «كثير» يحبون النساء، ويحبون ذكر النساء يتخذونه فنًا، ويحاولون الإجابة فيه، فلم يكونوا من صدق العاطفة وقوتها بمكان جميل وأصحاب جميل، ولكنهم كانوا قريبين منهم؛ لأنهم كانوا يتأثرونهم، ويسلكون سبيلهم، ويريدون أن يخدعوا الناس عن أنفسهم، وأن يمثلوا أنفسهم في صورة العاشقين حقًا، كان الأولون صادقين، وكان الآخرون يريدون أن يظهروا مظهر الصادقين، وربما لم يحرّموا الصدق حرمانًا تامًا.

أما عمر بن أبي ربيعة، ومن سار سيرته من شعراء بني أمية، فلم يكونوا يصدرون عن عاطفة عذرية، ولم يكونوا يتكلفون هذه العاطفة العذرية، لم يكونوا ينظرون إلى المرأة من حيث هي المثل الأعلى للجمال والحب، وإنما كانوا ينظرون إليها من حيث هي المثل الأعلى للجمال واللذة، والفرق بين هاتين الوجهتين عظيم. كان ابن أبي ربيعة رجلًا يحب الحياة، ويحب المرأة؛ لأنها زينة الحياة، أو لأنها اللذة في الحياة، وكان صادقًا في حب المرأة، من حيث هي لذة الحياة، فكان غزله على بعده من العذرية أو من الأفلاطونية، كما يقول المحدثون، مؤثرًا؛ لأنه كان صادقًا، ولأنه كان يترجم عن عواطف صحيحة، تؤثر في نفس الشاعر، وتؤثر في حياته العملية أيضًا ... كذلك كان شعراء بني أمية، سواء منهم العذريون حقًا، ومن تكلفوا العذرية، ومن أعرضوا عنها، ولم يلتفتوا إلى إلا اللذات، وضروب اللهو بالنساء.

أما أبو نواس فأمره غير هذا كله، لم يكن عذرياً، وما كان يستطيع أن يكون عذرياً، وهو الرجل الذي شك في كل شيء، أو قل: أنكر كل شيء، ولم يؤمن إلا بالمجون واللذة، يلتمسهما حيث يجدهما، لا يتقيد في ذلك بحرجٍ أو جناح، لم يكن عذرياً ولم يكن يتكلف أن يكون عذرياً، وإنما كان يسخر من العرب، ومما كان العرب يتكلفون، لم يكن يتكلف العذرية، وإنما كان يهيم باللذة، وبلذة غير التي كان يهيم بها عمر بن أبي ربيعة، لم يكن أبو نواس يحب النساء، وكان ينفر منهن نفوراً شديداً، حتى لم يفلح الذين أرادوه على أن يتزوج، على رغم إلحاحهم عليه، وتوسلهم إليه لم يفلحوا؛ لأن أبا نواس لم يكن يتصور حياة الزوجية، ولم يكن يستطيع أن يعيش عيشة متصلة مع امرأة.

لم يكن إذن يحب النساء، فلم يكن من الميسور أن يهيم بهن، أو يحسن الغزل فيهن، ومع ذلك فقد تغزل، تغزل لأنه شاعر، ولأنه من الحق على كل شاعر أن يتغزل، فالغزل فن من فنون الشعر يجب على الشعراء المجيدين أن يطرقوه، ويأخذوا منه بنصيب، وقد طرقه أبو نواس، وأخذ منه بنصيب، ولكننا نظلم أبا نواس إن قلنا: إنه لم يكن قط صادقاً في غزله، نلّمه؛ لأنه كان صادقاً في غزله، بل كان شديد الصدق فيه، بل قد نستطيع أن نقارن بينه وبين عمر بن أبي ربيعة في صدق العاطفة، وإجادة الوصف، وقوة التأثير إذا احتفظنا بشيئين؛ أحدهما: الفرق بين العصر العباسي والعصر الأموي، والآخر: أن أبا نواس لم يكن يجيد الغزل بالنساء، وإنما كان يجيد الغزل بالغلّمان ... فلأبي نواس في هذا الباب ما لابن أبي ربيعة في الغزل بالنساء، بل أنا أزعم أن أبا نواس في هذا الباب أشعر من ابن أبي ربيعة في الغزل بالنساء، ولست أستدل على هذا إلا بشيء واحد، وهو أن أبا نواس يُكرهك حين تقرأ غزله بالغلّمان على أن تعجب بهذا الغزل، على رغم ما فيه من منافرة للطبع والخلق والدين، أما ابن أبي ربيعة فهو لا يكرهك على أن تعجب بغزله، بل كل شيء يحملك على أن تعجب بغزله، فطبيعتك تحب إليك ذكر النساء والتغزل بهن، وإذا أسرف ابن أبي ربيعة فتجاوز الخلق أو الدين؛ فليس في هذا الإسراف خروج عن الطبيعة، أو تجاوز لها، وإنما هو جزء من الطبيعة، أو قل: إنه الطبيعة بنفسها، جاء الدين والأخلاق لتقييدها وإصلاحها.

أبو نواس إذن مجيد حين يتغزل بالغلّمان، ولكنه فاتر أو كاذب أو متكلف حين يتغزل بالنساء، وهو على كل حال لا يصف حين يذكرهن عاطفة قوية في نفسه، أو حباً صحيحاً، وإنما يصف ضرورياً من اللهو، وفنوناً من المجون، وقد يصف أحداً الحب فيحسن الوصف، لا لأنه يشعر به، بل لأنه شاعر مجيد، يتكلف الشيء فيحسنه أحياناً.

وقد يمتاز غزل أبي نواس بشيءٍ فسرتَه في الفصل الماضي، وهو أنه لم يتغزل بحرة، وإنما وقف غزله كله على الإماء، وذلك واضح، فقد عرفنا أنه يكره الزواج، وعرفنا أنه كان ماجناً مسرفاً في المجون، فلم يكن من السهل عليه، ولا من الميسور له، أن يخالط الحرائر، أو يتحدث إليهن، حين كان من اليسير عليه أن يداعب الإماء، ويسرف في مداعبتهن، ولا سيما بعد ما قدمت لك في الفصل الماضي من رقي الأمة في هذا العصر، وتفوقها على الحرة، وتهالكها على اللهو والمجون، فإذا عرفنا هذا كله، وأنزلنا غزل أبي نواس منزلته الصحيحة، كان من اليسير أن نتبين شيئاً مما في هذا الغزل من جودة اللفظ والمعنى، لا على أن نتخذ هذه الجودة مقياساً لنبوغ أبي نواس في الشعر، أو لصدقه في الحب، فإذا أردنا أن نبحت عن مقياس لنبوغ أبي نواس في الشعر، أو لصدقه في الحب؛ فليس أمامنا إلا وصفه للخمر، وغزله بالغلman، وإنما نبحت عن غزله بالنساء، لنعرف شيئاً من أخلاق العصر، ومن أخلاق الإماء فيه، ولنعرف أيضاً شيئاً من ظرف النساء في بغداد، وإن شئت فقل: من ظرف الغزل بالنساء في بغداد، ولهذه الأشياء قيمتها في الأدب وفي التاريخ.

وانظر إلى هذا العبث الذي يمثل الحياة البغدادية، حياة المجون والدعابة تمثيلاً صحيحاً:

أَرْسَلَ مَنْ أَهْوَى رَسُولًا لَهُ	إِلَيَّ وَالْمَنْسُوبُ مَحْبُوبٌ
فَقُلْتُ أَهْلًا بِكَ مِنْ مُرْسَلٍ	وَمِنْ حَبِيبٍ زَانَهُ طَيْبٌ
جَمَشْتُهُ فِي كَلِمَةٍ فَاثْنَتِي	وَقَالَ هَذَا مِنْكَ تَجْرِيْبٌ
مِثْلَكَ لَا يَعْشَقُ مِثْلِي وَقَدْ	هَامَ بِهِ بَيْضَاءُ رُعُوبٌ
وَجَاءَتْ الرُّسُلُ بِأَنَّ آتِنَا	فَجِئْتُهَا وَالْقَلْبُ مَرْعُوبٌ
قَالَتْ: تَعَشَّقَتْ رَسُولِي لَقَدْ	بَدَتْ لَنَا مِنْكَ الْأَعْجَابُ
ذَاكَ وَهَذَا لَكَ يَا غَادِرًا	فِي دَفْتَرِ الْحَاصِلِ مَكْتُوبٌ
مَنْ يَأْمَنُ الذَّنْبَ عَلَى مَعْرَةٍ	أَهْلٌ لَأَنْ يَخْفِرَهُ الذَّيْبُ
فَقُلْتُ فِي رَفْقِي وَفِي تُوْدَةٍ	مَقَالَةٌ قَدْ قَالَ يَعْقُوبُ
الذَّنْبُ لَا يُؤْمَنُ لِكِنَّهُ	عَلَيْهِ فِي يُوسُفَ مَكْدُوبٌ
هُمْ طَرَحُوا يُوسُفَ فِي جُبِّهِ	عَمْدًا وَقَالُوا خَانَهُ الذَّيْبُ

أترى إليه كيف كان يحب صاحبتَه حبًّا قويًّا صادقًا، حتى خانها في رسولها، فداعب هذا الرسول، وهو يعترف بهذه المداعبة فيما بينه وبينك، ولكنه حين يلقي حبيبته، ويريد أن يدافع عن نفسه، يضع نفسه موضع الذئب في قصة يوسف، ولكن أعجب من هذا أن تكتفي صاحبتَه منه بهذا الدفاع، بل أن تلومه في هذا الرفق واللين، ولكننا في بغداد، وبين قوم يلهون لا أكثر ولا أقل.

وانظر إلى هذه الأبيات الأخرى التي يسخر فيها من نفسه، فيحسن السخرية:

هَوَى عُرْوَةَ الْعُذْرِيِّ وَالْعَاشِقِ النَّهْدِيِّ	وَقَصْرِيَّةً أَبْصَرْتُهَا فَهَوَيْتُهَا
فَقَالَتْ بِهَذَا الْوَجْهِ تَرْجُو الْهُوَى عِنْدِي	فَلَمَّا تَمَادَى هَجْرُهَا قُلْتُ وَأَصْلِي
تُبَاعُ بِنَقْدِ حَاضِرٍ وَسَوَى نَقْدِ	فَقُلْتُ لَهَا لَوْ كَانَ فِي السُّوقِ أَوْجُهُ
لَعَلَّكَ أَنْ تَهْوَى وَصَالِي مِنْ بَعْدِ	لَعَيَّرْتُ وَجْهِي وَاشْتَرَيْتُ مَكَانَهُ
فَقَالَتْ وَلَوْ أَصْبَحْتَ نَابِغَةَ الْجَعْدِيِّ	وَإِنْ كُنْتُ نَا قُبْحٍ فَإِنِّي شَاعِرٌ

ثم انظر إلى هذا الظرف:

بَعْدَ امْتِنَاعٍ وَشِدَّةِ التَّعَبِ	سَأَلْتُهَا فُجْأَةً فَفَزَّتْ بِهَا
جُودِي بِأُخْرَى أَقْضِي بِهَا أَرْبِي	فَقُلْتُ بِاللَّهِ يَا مَعْدَبَّتِي
يَعْرِفُهُ الْعُجْمُ لَيْسَ بِالْكَذِبِ	فَابْتَسَمَتْ ثُمَّ أَرْسَلَتْ مَثَلًا
يَطْلُبُ أُخْرَى بِأَعْنَفِ الطَّلَبِ	لَا تُعْطِينَ الصَّبِيَّ وَاجِدَةً

وانظر إلى هذه القصيدة، التي لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها بغدادية؛ لأنها تمثل رقة بغداد، وتمثل هذه النزعة الدينية التي تجدها في العامة، والتي تحملهم على أن يقسموا بالقرآن، وسور القرآن، وبالْحج، ومناسك الحج، حين ينبغي أن يقسموا بشيءٍ آخر:

رَوَّقَنَ لِي تُرَّهَاتِ	مَا لِي وَلِلْعَازِلَاتِ
يَأْمَنُ فِي مَوْلَاتِي	سَعَيْنَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ
مِنْ رَاحَتِي حَيَاتِي	يَأْمُرَنِي أَنْ أُخْلِي
يَكُونُ حَتَّى الْمَمَاتِ	وَذَاكَ مَا لَا وَلَا لَا

و«اللّه» مُنْزِلِ «طه»
 و«الر» و«صاد» و«قاف»
 وَرَبِّ «هُودٍ» و«نُون»
 لَا رُؤْمُتُ هَجْرِكَ حَبِّي
 تَجَمَّعُوا عَلَّمُونِي
 يَا وَيْلَنَا أَيُّ شَيْءٍ
 مِنْ لَوْعَةٍ لَيْسَ تُطْفِئُ
 أَنَا الْمُعْنَى وَمَنْ لِي
 الظَّاهِرُ العَبْرَاتِ
 مُنِيْتُ بِالمُتَحَرِّي
 يَا سَائِلِي عَن بِلَائِي
 يَخْفَى الهَوَى فِي سُكُونِ الـ
 وَاللّه لَوْ كُنْتُ أَعْمَى
 حَلَفْتُ بِالرَّاقِصَاتِ
 وَمُنْتَنٍ بِالْهَدَايَا
 وَمَا تَوَافَى بِجَمْعٍ
 لَوْ جَاءَ مِنْكَ رَسُولٌ
 لَقُلْتُ هَاكَ خُذْنَهَا
 وَيْلَاهُ نَارُ التَّصَابِي
 فَأَبْكَتِ العَيْنَ مِنِّي
 وَصَاحِبِ كَانٍ لِي فِي
 لَمْ يَطَّلِعْ طَلَعِ شَأْنِي
 فَبَيْنَمَا نَحْنُ نُمْسِي
 إِذْ قِيلَ شَمْسٌ ضُحَاهَا

و«الطُّور» و«الدَّارِيَاتِ»
 وَ«الحَشْر» و«المُرْسَلَاتِ»^٢
 وَ«النُّور» و«النَّازِعَاتِ»
 حَتَّى وَإِنْ لَمْ تُوَاتِي
 يَا إِخْوَتِي كَيْفَ آتِي
 بَيْنَ الحَشَى وَاللَّهَاهِ
 تَطِيرُ فِي جَانِحَاتِي
 يَزْثِي لِطَوْلِ شِكَايَتِي
 البَّاطِنُ الرِّفَاتِ
 فِي كُلِّ أَمْرٍ مَسَاتِي^٢
 انْظُرْ إِلَى لِحَظَاتِي
 مُجِبٌّ وَالْحَرَكَاتِ
 عُرِفْتُ فِي سَحَنَاتِي
 فِي لُجَّةِ الفَلَوَاتِ
 يُطْعَنُ فِي اللَّبَّاتِ
 وَ«الشَّعْب» فِي عَرَفَاتِ
 يَقُولُ نَفْسِكَ هَاتِ
 مُسَلِّمًا لِوَفَاتِي
 رَقْتُ إِلَى اللُّهَوَاتِ
 بِمِثْلِ مَاءِ الفُرَاتِ
 هَوَايَ ذَا تُهْمَاتِ
 إِلَّا اتُّهَمَ هَنَاتِي
 نَسِيحٌ فِي الطُّرُقَاتِ
 فِي أَرْبَعِ عَطِرَاتِ

^٢ يريد ألف لام را، وهو مفتتح سور من القرآن.

^٣ يريد: مساءتي.

فَقُلْتُ شَمْسُ وَرَبِّي قَدْ جَلَّتِ الظُّلُمَاتِ
 وَقَدْ نَسِيتُ الَّذِي بِي مِنْهَا مِنَ الكُرْبَاتِ
 لِرِيحِ حُبِّ جَرَّتْ لِي فَأَنْشَأْتُ عَبْرَاتِي
 وَأَنْزَفْتُ مَاءَ عَيْنِي وَأَصْعَدْتُ زَفْرَاتِي
 وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنِي كَمِثْلِ نَقِيسِ الدَّوَاةِ
 فَالْحُبُّ فِيهِ هِنَاةٌ مَوْضُولَةٌ بِهِنَاةِ
 يُعْقِبُنَ طَوْرًا سُرُورًا وَتَارَةً حَسْرَاتِ

ألست ترى أنه قد أحسن التحدث إلى النساء، بلغة النساء، ولهجة النساء؟! ولقد أراد أن يسلك سبيل امرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة، فيما كانا يقصان من زيارتهما لعشيقتهما، فقال في ذلك شعراً لا بأس به، ولكن لا أروي لك منه إلا هذين البيتين؛ لأن في أولهما إيجازاً ظريفاً، وفي الآخر تمثيلاً لأمر بغداد:

فَكِدْنَا وَلَمَّا غَيْرَ أَنْ شِفَاهَنَا تَعَاطَتْ خَلِيطِي سُكَّرَ وَعُقَارِ
 وَوَدَّعْتَهَا صُبْحًا وَلَمْ أَنْسَ صَدَّهَا وَقَدْ بَادَلْتَنِي خَاتَمًا بِسُورِ

وانظر إليه كيف يمازح صاحبتة، ويتمنى عليها الوصل، وينكر عليها الهجر، ويعدها بأن لا يكون ثقيلاً، ولا مطيلاً إن وصلته، كل ذلك في بيت واحد ظريف، وهو:

فَرَاغِي الوَصْلَ فَإِنْ زُرْتُكُمْ قَدَرُ فُوقِ فَاحْلِقِي رَاسِي

وانظر إلى هذه الأبيات التي لا أصفها إلا بأنها تصلح للغناء إذا أسقطت منها بيتاً واحداً؛ لأن لفظ «الأنفاس» فيه غريب قد نستثقله:

إِنِّي عَشِقتُ وَمَا بِالْعِشْقِ مِنْ بَاسِ مَا مَرَّ مِثْلَ الهَوَى شَيْءٌ عَلَى رَاسِي
 مَا لِي وَلِلنَّاسِ كَمْ يَلْحُونَنِي سَفَهَا دِينِي لِنَفْسِي، وَدِينُ النَّاسِ لِلنَّاسِ
 مَا لِلْعُدَاةِ إِذَا مَا زُرْتُ مَا لِكْتِي كَأَنَّ أَوْجَهُهُمْ تُطَلَى بِأَنْقَاسِ!
 اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكي زِيَارَتِكُمْ إِلَّا مَخَافَةَ أَعْدَائِي وَحُرَّاسِي
 وَلَوْ قَدَرْنَا عَلَى الإِتْيَانِ جُنْتُكُمْ سَعْيًا عَلَى الوَجْهِ أَوْ مَشْيًا عَلَى الرَّاسِ

وَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابًا فِي صَحَائِفِكُمْ لَا يَرْحَمُ اللَّهُ إِلَّا رَاحِمَ النَّاسِ

ولأبي نواس من هذا شيء كثير، لا أستطيع أن أرويّه، وتستطيع أنت أن تقرّاه في ديوانه، فتجد فيه ما شاء الله أن تجد من ألوان الكذب، والغرور، والدعابة، والمجون، والعبث بكل شيء، وتجد فيه من القصص ما يلذ وما يضحك، ولكنني قلت لك: إن أبا نواس يمتاز في غزله بأنه كاذب، وأريد أن أختّم هذا الفصل ببيتين يشهدان عليه بأنه كاذب في غزله، وبأنه إنما يتكلف الغزل بالنساء ليرضي حاجته الفنية، أو ليخدع النساء عن أنفسهن، على أن أحد هذين البيتين في نفسه حكمة صادقة، يحسن أن يفكر فيها كثير من الناس:

يَا مَنْ يَوَجِّهُ أَلْفَاظِي لِأَقْبَحِهَا لِأَنَّهُ سَاجِرُ الْعَيْنَيْنِ مَعْشُوقُ
لَوْ كَانَ مَنْ قَالَ نَارًا أَحْرَقَتْ فَمَهُ لَمَا تَفَوَّهَ بِاسْمِ النَّارِ مَخْلُوقُ

سأحدثك في الفصل الآتي عن شعر أبي نواس في الصيد والطرْد.